من أحاديث الحبين

الموسيقى العـــاشق

للأستاذ علي الطنطاوي

قال لي أمس صديقي حسني : إني لأعلم شغفك بالموسيقى ، وحبك الفن القديم ، فهل لك في سماع رجل هو أحد أعمدة هذا الفن في دمشق ومن أساطينه ، وهو هامة اليوم أو غد ، فاذا انهار أوشك ألا يقوم مثله أبداً ؟

قلت : ما أحوجني إلى ذلك ، فمن هو هذا الموسيقى الذي لا أعرفه إلى اليوم على ما ذكرت من إمامته وتقدمه ، وعلى معرفتي بأرباب هذا الفن ؟

قال : هو (ش) باش رجل تركي ، كان من موسيقى القسطنطينية أيام السلطان عبد الحميد ، وانتهت إليه رياسة (العود) فيها ، وله اسطوانات هي عند الموسيقيين ، كرسائل الجاحظ عند جماعة الأدباء ، واسمع فعندي واحدة منها

وقام إلى (الحاكي) فأداره ، ووضع اسطوانة عتيقة ، فسمعت شيئاً ما حسبت مثله يكون ، وبدا لي كل ما سمعت إلى اليوم من ضرب الموسيقيين كأنه إلى جانبه لعب أطفال ، وخربشة مبتدئين

قلت : ويحك قم بنا إليه الآن

فقمنا وأخذنا معنا شيخ الموشحات في دمشق الشيخ صبحي واثنين من مجودي المغنين ، وذهبنا إليه

* * *

ضربنا في الجبل حتى جاوزنا الدور الفخمة والقصور العامرة ، ووصلنا إلى طائفة من المساكن هي أشبه بأكواخ ، قد بنيت من الطين وقامت دُوَيْن الصخر ، فوقفنا عند واحد منها ، وقرع الباب دليلنا حسني كنعان ، ففتح لنا رجل طوال ، عريض الألواح ، حليق الوجه محمرّه ، ولكن الكبر ظاهر عليه ، قد جمّد وجهه وإن لم يحن ظهره ، ولم يبصر عوده ، ورحب بنا على الطريقة التركية ، يخفض يده ، ويلوّح بها على أسلوب معروف ثم يمس بها طرف ذقنه ويرفعها إلى جبهته ، كأنه يقول : إني آخذ ذيل أحدكم فأقبّله وأضعه على رأسي ، وبالغ في الترحيب بنا ودعانا إلى الدخول فدخلنا ، فإذا رحبته نظيفة ولكنها خالية من الأثاث ، ما فيها إلا أشباه كراسي ، وسدة من الخشب مفروشة ببساط هي السرير وهي المجلس ، وإذا الفقر باد ، ولكن مع الفقر ذوقاً ونظافة ... فقعدنا ، وحلفنا عليه ألا يصنع لنا شيئاً ، فما نريد إكرامنا منه إلا بأسماعنا ضربه ...

أخذ قيثارته (كمانه) وقسّم (تقاسيم) هزت حبة قلبي ، فأحسست بلذة ما عرفتها من قبل ، ومع اللذة شيء من السحر ، يجعلك تتطلع إلى المجهول ، وتسمو إلى عالم الروح ، ويوقظ فيك ذكرياتك وآمالك كلها دفعة ...

فلما انتهى ، عرض عليه حسني العود ، فأبى واعتذر وقال : إنه لا يضرب عليه ...

قال حسني : كيف وأنت سيّد من جس عوداً ، وأنت إمام الضاربين !

قال : إنني لا أستطيع !

فلما ألحفنا وألححنا قال : إن لذلك قصة ما قصصتها على أحد [illegible] فاسمعوها ، ولو أني وجدت ما أكرمكم به لما قصصتها عليكم ، ولكني لا أملك شيئاً ، ولن أجمع عليكم حرمان السماع وكتمان السبب ... !

* * *

وهذه هي القصة مترجمة إلى لغة القلم :

قال : كان ذلك منذ أمد بعيد نسيه الناس وأدخلوه في منطقة التاريخ المظلمة ، فلا يرون منه إلا نقطاً مضيئة مثلما يرى راكب الطيارة من مدينة يمر بها ليلا ، أما أنا فلا أزال أحس به بجوارحي كلها ، ولا يزال حياً في نفسي ، بل أنا لا أزال أحيا فيه ، وما عشت بعده قط إلا بذكراه . لقد مر على قصتي زمن طويل عندكم لأنكم تقدرونه بعدد السنين ، نصف قرن ... أما أنا فأقدره بذكراه الحية في نفسي فأجده ساعة واحدة ... لحظة ... إني أنظر الآن إلى عينيها ، وأشم عطرها ، وأجلس في مجلسها ... إن ما أراه حولي ظلال ، وتلك المشاهد هي الحقيقة . أفعلمتم من قبل أن ذكرى قد تَضِحُ وتظهر حتى تطمس المرئيات ، وتغطي على الحقائق ، هذه هي ذكرياتي ...

كان أبي من الباشوات الكبار القربين من السلطان، فلما علم أنى اشتغلت بالموسيقى ، كره ذلك منى ، وصرفنى عنه ، وعاقبنى عليه ، فلما أصررت عليه ، أهملنى واطرحنى ، وطردنى من داره ، فلبثت أتنقل فى بيوت أقربائى وأصدقاء أبى ، أمارس تعلم الموسيقى لأبناء الأسر الكبيرة ، وكان (فلان) باشا من الآخذين بأسباب الحياة الجديدة ، يحب أن يقبس عن أوربة طرائقها فى معيشتها ويقلدها فى السير عليها ، فدعانى لأعلم ابنته ، وكنت يومئذ فى الثلاثين ، ولكنهم كانوا يقولون عنى : « إنه أجمل شاب فى حاضرة الخلافة » ... وأحسب أنى كنت كذلك ، ولكنى — ولست أكذبكم — ما عرفت طريق الحرام ، ولا الحلال استطعت سلوك طريقه !

قابلت الباشا ، فأدخلنى على ابنته لأعلمها ، فنظرت إليها ، فإذا هى ملتفة بـ (يشمق) من الحرير الأبيض ، لا يبدو منه إلا وجهها ، وإنه لأشد بياضاً ولينا من هذا الحرير ، لا البياض الذى تعرفونه فى النساء ، بل بياض النور ، لا ، لم أستطع الإبانة عما فى نفسى ، إنه ليس كذلك ، هو شىء ثمين عذب مقدس ، يملأ نفسك عاطفة لاشهوة ، وإكباراً لاميلا ، وتقديساً لارغبة ، وكانت عيناها مسبلتين حياء وخفراً ، تظهر على خديها ظلال أهدابها الطويلة فلم أر لونها ، وكانت فى نحو السادسة عشرة من عمرها ، مثل الفلة الأرجة إبان تفتحها ...

وانصرف أبوها بعد ما عرفنى بها وعرفها بى ، وبدأ الدرس على استحياء منى ومنها ، ورفعت عينيها مرة ، فمشى بى منهما مثل الكهرباء إن لست سلكها ... عينين زرقاوين واسعتين ، فيهما شىء لا يوصف أبداً ، ولكنك تنسى إن رأيتهما أن وراءك دنيا ... إنها تصغر دنياك حتى تنحصر فيهما ، فلا تأمل إن رأيتهما فى شىء بعدهما ... العفو يا سادة ! أنا لست أديباً ، ولا أحسن وصف الكلم ، ففسروا أنتم كلامى ، وترجموه إلى لسان الأدب ، وأين الأديب الذى يملك من الكلام ما يحيط بأسرار العيون ؟ إنه لعلم أوسع وأعمق من الفلسفة والكيمياء والفلك ... أعندكم فى وصفها إلا أن تقولوا : عينان سوداوان أو زرقاوان ، واسعتان أوضيقتان ، حوراوان دعجاوان ، وتخلطوا ذلك بشىء من تشبيهاتكم؟ أعرضوا عيون الفتيات تروا أنكم لم تصفوا شيئاً ، هاتان عينان متشابهتان فى سمتهما ولونهما وأهدابهما ، ولكن فى هذه الجمال الوادع الحالم ، وفى تلك الجمال الشرس الأخاذ ، وفى أخرى العمق والرهبة ، وفى هذه الأمل ، وعين فيها فتنة ، وعين فيها خشوع ، وعيون فيها شىء لا تعرف ما هو على التحقيق ، ولكنه يبدل حياتك ، ويقلب عليك دنياك باللمحة الخاطفة !

ولما تكلمت سمعت صوتها كأنما هو ... مالى وللتشبيهات التى لا أحسنها ؟ وأين ما يشبه به صوتها ، وفيه الخفر وفيه الرقة وفيه فتنة وفيه رفاهية ؟ لا تعجبوا فإن من الأصوات الصوت المهذب والصوت الوقح ، والصوت المرفه ، والصوت البائس ؟ وصوتاً خليعاً وآخر صيناً . إن الصوت لينطق من غير حروف . ورب ناطقة بلا إله إلا الله ، وصوتها يدعو إلى الفحشاء ! وقائلة كلة الفجور وصوتها ينهى عنه ! وإنك لتستطيع أن تتخيل المرأة من صوتها . ولم يكن فى زماننا هذا الهاتف (التلفون) ولكنى أعذر من أسمع عنهم أنهم يعشقون بالتلفون . فالأذن تعشق قبل العين أحياناً .

لم أجاوز الدرس ولم أقل فوقه كلة واحدة . وكنت أشد منها حياء وخجلا ، ولم يكن أبناء زماننا أولى وقاحة وجرأة كهذه الجرأة التى تراها اليوم ، وندر فيهم من كان مثل (الباشا) يسمح لابنته الناهد أن تتلقى العلم عن الرجال — وهو يعلم أن الشاب والشابة فى الطريق أو المدرسة يتخاطبان بلغة العيون خطاب الرجل والمرأة ، قبل أن يتحرك اللسانان بحديث المعلم والتلميذة . وانقضى الدرس بسلام ، ولكنى لما فارقتها رأيت كل شىء قد تبدل ، فقد تعلقت بالحياة وكنت بها زاهداً ، ورأيت ضوء الشمس أشد نوراً ، وأحسست بالوجود من حولى وقد كنت أنظر إليه غافلا ، وكان لى أصحاب لم أكن أعدل بمجلسهم وصحبتهم شيئاً ففارقتهم تلك الليلة وهربت منهم ، وذهبت إلى غرفتى فلم أطق فيها قراراً ، ولا اشتهيت طعاماً ولا شراباً ، ووجدتنى أخرج على الرغم منى ، فأؤم دارها ، فيردنى بابها فأهيم حولها أوغل السير فى التلال الشجراء عند (بيوغلى) لا أستطيع النأى عن دارها . صارت هى كونى ودنياى ، قد تبدلت قيم الاشياء فى نظرى ، فعز ما كان منها أو يمت بصلة إليها ، وهان كل شىء سواه ، وانطويت على نفسى أفكر فيها وأتصور أدق حركة أو سكنة منها . وكلما ذكرتها

يهزّ شيء قلبي فيخفق كجناح طائر علقت رجله بالفخ ، ثم يندفع الشيء إلى عينيّ فيفيضان بالدمع . ولا أدرى كيف أمضيت ليلتى ، حتى إذا أزف موعد الدرس الثانى شعرت كأنى عدت إلى جنتى التى خرجت منها ، وعشت ساعة فى لذة لو جُمعت لذاذات الأرض كلها ما بلغت نقطة من بحرها . وعندما ودعتها نظرت إلى نظرة شكّت (وحرمة الحب) كبدى وزلزلتنى زلزالا ، وكدت من سرورى بها أطير فوق رؤوس النـاس خفة وفرحاً ، فقد علمت أن لى عندها مثل الذى لهـا عندى ، على أنى ما كلتها فى غير موضوع الدرس كلمة ولا لمست طرف ثوبها ، وما هى إلا نظرة واحـدة ولـكنها قالت فأبلغت ، وحدثت فأفهمت !

* * *

وسكت الموسيقى وجال الدمع فى عينيه ، ثم قال وهو يكاد يشرق بدمعه وقد ضاع فى رنّة البكاء صوته :

أتدرون ما عمرى اليوم ؟ أنا فوق الثمانين ، وقد مرّ على هذا الحب دهر ، ولـكنى أراه كأنه كان أمس ، وأنى لا أزال شاباً ينطوى صدره على قلب صبى . ولقد حسبت أنى أستطيع أن أتحدث عنه كما يتحدث الشيوخ عن ماضيات لياليهم — فوجدتنى لا أستطيع ، لا أستطيع فاعذرونى . إن هذه الذكرى قد خالطت شغاف قلبى ، ومازجت لحمى وعظمى ، وإنى لأحسّ وأنا أحدثكم أنى أمزّق جسدى لأستلّ منه هذه الذكريات !

قلت : فاخبرنا ماذا كان بعد ذلك ؟

قال : كان ما أخشى التحدث عنـه ، إنى لا أحب الذكرى وأثيرها ، إنكم لا تدرون ما ذا تصنع بى ؟ إنها تحرقنى ، تنتزع روحى ...

كان يا سادة : أنى تدلهت بحبها ، وهمت بها ، وجعلتها هى كل شىء لى ، إن كنت معها لم أذكر غيرها ، وإن فارقتها ذكرتها وفـكرت فيها . فهى ماضى وحاضرى ومستقبلى ، وهى ذكرياتى كلها وآمالى ، أراها طالعة علىّ من كل طريق أسير فيه ، وأرى صورتها فى صفحة البدر إن طلع علىّ البدر ، وفى صحيفة (النوطة) إن جلست إلى (البيان) ، ومن سطور الـكتاب إن عمدت إلى القراءة فى كتاب ، فإذا جلست إليها والعود فى حجرى ، وعيناها فى عينى ، وأذناها إلى عودى ، تخيلت أنى معانقها هى لا العود ، وغبتّ عنى ، وسمتْ روحى إلى عالم أعرفه ولا أعرف ما اسمه ، فرجعت منه بالسحر فجرتْ به يدى على العود ، فمن هناك تلك (الاسطوانات) التى كنتم تعرفونها لى .

لا ، لا تلحفوا علىّ (سألتكم بالله) ، لن أذكر لكم هذه التفاصيل ، إنى انتزعها من لحمى ودمى ، فدعوها لى ، إنها حظى من حياتى أتعلل بها وحدى . لا أحب أن تلوكها الأفواه ويتلهى بها قراء المجلات . لقد كانت الخاتمة أن أصدقاء أبى عطفوا على ، فخطبوها لى وكان العقد وصارت زوجتى ، ولـكن الله لم يشأ أن تتم سعادتى فرضت ثم ...

وغلب عليه البكاء ، فلم يستطع أن يخرج الـكلمة ، فأداها بإشارة مبتلة بالدمع ، مجروقة بأنفاس الألم !

* * *

وسكتنا — فقال بعد هنيّة :

وقد ذهبت أودعها — فأخذت يدها بيدى ، وكانت تلك أول مرة وآخرها ، كأنى أنازع الموت إياها — وأسمعتها منه :

— إنك غداً ، تحب غيرى وتضرب لها على عودك .

قلت . لك علىّ عهد الحب ، لا نظرت بعدك إلى امرأة ، ولا أجريت يدى على عود .

وسكت ، ونظر إلى العود كأنه يريد أن يستنطقه لينطقه بالمعجزات ، ويترجم به عن لواعجه ، ثم غلبه البكاء مرة ثانية فقام ، وانسللنا نحن واحداً بعد واحد ، وأغلقنا الباب ونحن نسمع نشيجه !

(دمشق) **على الطنطاوى**

شعاب قلب

مجموعة من القصص

بقلم حبيب الزحلاوى

يطلب من مكتبة مصطفى الحلبى وأولاده